وليد رباح

عنترة .. يصون ناقته بالخيانة

حلب عنترة ناقته حتى اخر قطرة ، ثم ترك الحليب يبرد قبل ان يرتشفه بتؤدة ... قالت له الناقة قد ظلمك بنو عبس فلا تمد لهم يدا اذا ما الغزو داهمهم ... سمع عنترة كلام الناقة ، ثم انتقى شجرة نخيل عالية ونام تحتها .

حدثني شيبوب عن ابن اليمونة عن عفراء عن شداد انه قال ::: لما نام عنترة في ظل النخلة حدثت اشياء مهمة وخطيرة ، فقد سبى الغزاة حبيبته عبلة واخته مروة ، ووشموا امه زبيبة بالعار فولدت طفلا سموه المتفائل ، واستفرد الغزاة بالرجال فعاملوهم كما يعاملون النساء ، اراقوا الخمر بين اثداء نساء بني عبس ولم يشربوه الا من السرة ، باعوا اطفال القبيلة لرجال من قوم سيدنا لوط وختموا أرجلهم كيما يظلوا عبيدا مدى الحياة ، واكثر من هذا ، فقد انتقت عبلة شابا جميلا من الغزاة واتخذته خليلالها لا يضاجعها الا اذا ذكرت خصال عنترة الحميدة ، وكانت تكثر من ذكرها ، .. وقال ايضا : انه لما تدجن القوم وجنحوا نحو السلم تركهم الغزاة فتاهوا في الصحراء عشرات السنين ، أصبحوا يتاجرون بالقنب والجمال وافخاذ النساء ، ويمارسون البغاء دون ضوابط . ويقال ان الغزاة قد دعوا عليهم اذا ما غابت (حريمهم) لا يسألوهن اين كنتن بل يسألوهن ماذا جلبتن ، وفي رواية اخرى ، انهم نكلوا بعنترة في اثناء نومه وختموه كما ختموا اطفال بني عبس ، ولكنه ظل نائما تحت جذع النخلة تهزها له الناقة فتتساقط عليه رطبا جنيا ، تضعه الناقة في فمه فيمضغه ويتلذذ به ويرفض ان يقوم لينقذ حبيبته عبلة ، لكن هذه الرواية لم يؤكدها احد غير ابن النواحة ، وهذا معروف بعدائه الشديد لعنترة .

« .... في القرن العاشر للغزو كتبت صحيفة بني عبس ان بعض الاطفال رأوا عنترة يتجول في شوارع المدينة ، وان شعره الكث ولحيته الممرغة بالوحل قد أخافت الناس فهرعوا الى الملاجىء ، واطلقت صفارات الانذار زعيقها ، وخلا السلطان الى صومعته يذكر الله كثيرا كي يبعد عن شعبه البلاء ، ثم امر طائراته ان تصعد الى السماء في رحلات استطلاع متواصلة كيما تصور كل دابة على الارض عل السلطان يعثر على عنترة فيقتله ويريح الناس من شره . ولكن الطائرات كانت تعود ويؤكد طياروها انهم لم يشاهدوا طيلة مدة الرحلات غير تحركات عسكرية على الحدود ، يجريها العدو بين آن وآخر »

ولما لم يثبت كلام الصحيفة فقد امر السلطان بأغلاقها وحبس العاملين بها ، وهكذا غدت دولة بني عبس دون صحف .

* * *

يحكى ـ والله اعلم ـ انه لما عم البلاء واصاب القحط والغزو بلاد بني عبس حكت الناقة انف عنترة فتقلب حتى رسا على وجهه ، ولما شم رائحة التراب نهض كمن لدغته افعى ، نظر حوله فاذا خيام بني عبس قد اخذتها الريح ولم يبق غير الاوتاد مغروسة في رحم الارض ، وتذكر عبلة وعروة وزبيبة وابن اليمونة وشيبوب وابن النواحة ، ثم انه حلف بالطلاق قبل ان يتزوج ليلاحقن شدادا ويجبره على الاعتراف امام كل الشياطين انه شرعي من صلبه .

قالت له الناقة ان ريح السموم تهب على الصحراء من كل الجوانب فادع ربك ان يزيل الكرب ويعم الرخاء ارض بني عبس ، قال عنترة للناقة ... وسيفي كان دلال المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا ، قالت له قد مضى زمن الشعر والسيف ونحن الان في عصر الهروب . فحلف يمينا ان كررت ما ذكرت سوف يقص رأسها ويطعم كبدها لفقراء بني عبس ، ثم ان الناقة انكمشت على نفسها ولم تعد تخاطبه الا بالحسنى .

* * *

انتعل السلطان حذاءه بالمقلوب واسرع نحو الميناء ... وقبل ان يصعد الجند الى ظهور السفن وصاهم ان يجوبوا البحر بحثا عن عنترة ، وان لا يعودوا الا وايديهم تقبض على شفتيه الفليظتين .

قال القائد سوف يتدحرج رأسه امامك في ايام قليلة ... قال السلطان لا اريد رأسه اريده حيا أتحدث اليه كيلا يتهمني الناس باني محوت مجد بني عبس بقتله .

وهكذا صعد القائد وجنده الى السفن وغيبهم البحر فلم يعد يسمع بهم أحد .

بعد اشهر قيل ان عنترة قد اغرق كل السفن بما فيها من حمولة وجنود ، وقيل ان السلطان قد عطل السفن فانفجرت في البحر كي يتخلص من الجند المعارضين ، وقيل ان الجند والقائد قد انضموا الى صفوف عنترة وهم يتحينون الفرص للانقضاض على السلطان وتحرير ارض بني عبس من الكفرة .

الا ان كل الروايات التي غطت المنازل والشوارع لم يسندها دليل واحد ، وهكذا نسي الناس الجند وحكاية السفن والبحر والخطر الذي يأتي من البلاد البعيدة .

* * *

قالت عبلة لوصيفتها اني اشتاق اليه وأحن لمرآه فافردي لي منديلك بساطا اطير عليه وابحث عنه في كل المدن ، قالت لها الوصيفة ان كان حيا فسوف ينقب الارض بحثا عنك فلا تجزعي ، ثم ان عبلة نامت وهي تحلم بالزرع والحنون والارض الخضراء .

* * *

عن زبيبة عن مروة عن شيبوب عن عنترة انه قال : ـ

هزت الناقة النخلة فلم يسقط الرطب ، وهزتها ثانية فتساقطت الحجارة على رأسي وفتحت فيه شروخا لا زلت أتحسسها والعن اليوم الذي احب فيه شداد زبيبة .

قادتني الناقة الى ارض غريبة ، وكلما دخلت خيمة رجمني الناس وحملوني اثقالهم ... هاجمني الاطفال في الشوارع فلم يهتم الكبار ، صبوا الزيت الوسخ في طريقي فانزلقت قدمي اكثر من مرة ، وفي احدى المرات كادت سلسلة ظهري تتقطع .

وهكذا حملت بعض فتات الخبز من اكوام القمامة وانتحيت بعيدا عن الناس أمضغ أيامي بمرارة .

وخلال وجودي ، كان رجال القوافل يمرون بي فاسمع اخبار بني عبس ، قال احدهم ،

في غياب عنترة حدثت اشياء مهمة وخطيرة ، فقد برز احد الفرسان وسمى نفسه (الزير) واخذ يتغزل بعبلة وجمالها فداهمه زوجها في عز الظهيرة وحلق له شاربه وهكذا فقد رجولته وانتحر .

وقال آخر ان العسس منعوا آل عبس من التنفس الا من خلال قصبات صنعتها لهم الدولة ، يدخل اليها الهواء بمقدار ويخرج منه بمقدار .

وقال ايضا :

ان بني عبس قنعوا بالقليل واخذوا يحلمون في النهار وينامون في الليل ويأكلون ويمشون في الاسواق بانتظار عنترة .

وعنه ايضا انه قال :

وهززت سيفي فارتعش الجبناء ... كان الجوع والوجع يفردان ظلهما على وجهي ، لكني مشيت خطوة فانغرست قدمي في رمل الصحراء ... نزعتها بقوة وواصلت الطريق ، ـ انتهى كلام عنترة ـ

* * *

هذا العنترة الملعون القادم من صحراء التيه فليقص لسانه .. كان الظلام يدوس بنعليه وجه المخيم ... وعنترة السابح في البؤس والجوع يجمع كل الفقراء ويحدثهم عن عبلة ، وشداد يختفي بين الازقة لا يريد مواجهته ، وطائرات السلطان تحوم معلنة حالة الطوارىء .اما الاطفال فكانوا يمضون ايامهم بين اكوام القمامة .

سقط عنترة من حصانه (فجلخوا) كل حواف السكاكين والسيوف ، لكنه نهض واخذ يهز سيفه من جديد

عن ابن النواحة عن عنترة أنه قال :

لقد مات عنترة يوم سبيت زبيبة (انتهى كلام ابن النواحة) وعن شيبوب عن عنترة انه قال :

قيدوني ... قصوا شواربي لكني لم افقد رجولتي فقررت ان اواصل القتال . وعبر صليل السيوف رأيت عبلة تفرد غدائرها وتلفها حول وسطي كي تنقذني من الموت .

عن عنترة عن شداد انه قال :

داهم الغزو بني عبس ففلت الدماء في عروق عنترة .. وهكذا انتضى رمحه وتمنطق بسيفه واطعم لحمه لدبابات العدو ومن هنا قررت ان اعترف به .. على انه من صلبي .

عن عبلة عن عنترة انه قال :

عبر كل عيون آل عبس ارى وجه عبلة ، وبين الحفاء والرمد وقنوات الماء القذر في الازقة (اجلخ) سيفي واواصل .

* * *

جرح عنترة ساق ناقته ثم امتص بعضا من دمها عندما لم يجد الماء ... قالت له الناقة في جوفي الطعام والماء فاذبحني ان شئت وامض لما انت فيه ، ضحك عنترة وتمطى على الرمل قليلا .. ثم انتقى شجرة نخيل وارفة فاتكأ على جذعها لكنه لم ينم .. كان دبيب النمل يوقظ فيه كل هواجسه فينهض على الفور ، ترك كل عواء الذئاب وراءه ومشى ، وعبر كل شعاع جديد للقمر ، كان يحلم ان يلتقي بعبلة فيلف وسطها بذراعيه وينقلها الى عالم رحب لا وجود للناس فيه .

طرابلس (ج. ع. ل)